نحن.. والغزو الثقافي

رئيس التحرير

الثقافة كلمة مستحدثة يراد بها كل مايميّز الامة في فكرها ومشاعرها وتعاملها مع الكون والحياة.. إنها هوية الأمة ومظهر أصالتها والمعبّر عن وجودها وحياتها.

ومنذ أن ولدت الامة الاسلامية انبثقت معها ثقافة تمثلت في عقيدتها وأخلاقها وآمالها وحركتها الفكرية والاجتماعية. وعلى مرّ العصور تعمّقت هذه الثقافة واتسعت تغذّيها جهود المسلمين في مجال الفكر والتجربة، ويثريها الانفتاح الفاعل ـ لا المنفعل ـ على الثقافات الاخرى.

كلمة التحرير

ومن الواضح أن أهمّ عامل في صيانة الثقافة الاسلامية على مرّ العصور يتمثل في اعتزاز المسلمين بهويتهم، وإحساسهم بمكانتهم وبمسؤوليتهم على الساحة العالمية.. فهم قادة مسيرة البشرية على طريق كل كمال إنساني وعلمي. وهم هداة .. ودعاة.. وشهود.. ووسط.. في حركة التاريخ.. من دون انغلاق على ما عند الآخرين من علم ولو كان في الصين..

ولظروف تاريخية وثقافية مُني المسلمون في القرون الأخيرة بهزيمة.. عسكرية.. وسياسية.. واقتصادية.. وعلمية.. وأفظع من كل ذلك انهزموا نفسيا.. فقدوا الاحساس بالعزّة.. والفخر بالهويّة المتميّزة .. فقدوا الشعور بالمكانة والدور والمسؤولية.. وكانت هذه الهزيمة النفسية نتيجة «غزو ثقافي» مدروس، جند له الغزاة جيشا من الاعلاميين والمستشرقين والادباء والكتاب وأصحاب الفنون والمتخصصين في الدراسات النفسية والاجتماعية.

والغزو الثقافي أغنى الغزاة عن الغزو العسكري لأنه جعل المسلمين يقبلون عن «قناعة» بضرورة الخضوع اليهم واستجدائهم، والعيش على فتات موائدهم، بل والمحاربة تحت لوائهم.

ولو لم يكن للامة الاسلامية رصيد من القرآن والسنّة يبقي على جذوة وجودها، لأتى الغزاة على آخر أنفاسها، ولابتعدت عن ساحة التاريخ.

لكن هذا الرصيد الخالد حافظ على بقايا الهويّة والوجود، حتى قيّض الله لهذه الأمة رجالاً أوقدوا الجذوة فاشتعلت وأنارت وتحولت الى وهج ساطع يعيد الأمل الى المهزوزين والثقة الى المهزومين.

وأمام هذه الظاهرة فقد الغزاة صوابهم، وراحوا يشكلون الحلقات الدراسية المكثفة ويقيمون المؤتمرات والندوات، ويجندون الخبراء والمفكرين لدراسة سبل المواجهة والتطويق.

وحين وجدوا أنّ المدّ يتسع والصحوة تتعالى، لجأوا الى تواجد عسكري دمّر بقاعا من عالمنا الاسلامي وهدّد أخرى، لكن هذا القمع العسكري علاج مؤقت، لابد أن يستتبعه القمع الدائم، وذلك مالايتم الاّ عن طريق التخطيط لهزيمة نفسية أخرى للمسلمين.

وبدأت خطة الغزو الثقافي الجديد بسلاح متطور يهاجم المسلمين في عقر دورهم عن طريق الاجهزة الالكترونية والاقمار الصناعية.

واعتمدت الخطة أول ما اعتمدت على تضخيم التطور التقني الغربي لاقناع المسلم بأنه لابدّ - إن اراد اللحاق بركب التطور - أن يكون تابعا ذيليا متطفلا على الغرب. ولابدّ له - إن أراد أن يعيش - أن يقبل «النظام العالمي الجديد» بكل معادلاته في مجال الهيمنة السياسية والاقتصادية والتقنية.

ثم اعتمدت الخطة أيضا سبيل إثارة الشهوات.. فالهوية الاسلامية تقوم على أساس التعادل بين متطلبات الروح والجسد، وكل إخلال بهذا التعادل يشكل تهديدا للهوية، ولاستمرار مسيرة الأصالة. خاصة في المجتمع الاسلامي المعاصر حيث الهويّة في بداية الظهور، والانسان المسلم في المراحل الاولى للاستيقاظ.

المجتمعات المسلمة لم تستعد احساسها الكامل بالعزّة حتى الآن وإن بدأت بذلك، والامة المسلمة لم تعد الى هويتها بالشكل المطلوب، والمسلمون لم يعتلوا مكانتهم على الساحة العالمية كما أراد لهم الله سبحانه. إنها فترة مخاض صعب حرج. وتحتاج الولادة الى احتضان واهتمام لدرء مخاطر الفعل والانفعال عنها. وهذا الهجوم الواسع للاخلال بقدرة الارادة وإضعافها وإرضاخها للشهوات يهدد هذه الولادة ويعرّضها لخطر كبير.

وثمة محور ثالث للخطة يعتمد عملية تحقير المسلمين والاستهانة بهم وانتهاك مقدساتهم، وتصويرهم بمظهر مجموعة بشرية لاهمّ لها الاّ البطن والفرج،

ولاشغل لهـا الآالبطـر والـراحة والاستهـلاك، هـذا بـالنسبة لعـامتهم أما أصحاب الهمـوم الاسـلامية فهم رجعيـون وديماغوجيون وارهابيون و.. و.. ومن الطبيعي أنهم يسعـون في المحـور الثـالث لتهويل تلك التصرفات الخاطئة المخجلة لبعض المسلمين ليسموا بها الامة الاسلامية بأجمعها.

وهنـا نطرح اسئلة ليجيب عليها المسلمون أنفسهم: ماهي مسؤوليتهم تجاه هذه العملية الواسعة المكثفة المدروسة التي تستهدف هويتهم وكرامتهم وعزتهم؟ مـاهي مسؤولية العلماء والمفكرين والعاملين في سبيل عزّة الاسلام بشكل خاص؟ الا تستدعي توحيد كل الطاقات والجهود؟ ألا تفرض تجاوز الاختلافات المذهبية والطـائفية؟ ألا تتطلب حزمـا شديـدا لردع كل موقف داخلي يدعم عملية الاذلال والاهانة؟ ألا يستـوجب استثمـار كل الفـرص لتسجيل موقف يثبت عزة المسلمين وكرامتهم وشخصيتهم الحضارية والفكرية المتميزة؟..

الجواب على هذه الاسئلة واضح..

ولكن الجـواب وحـده لايكفي.. لأننـا غُزينا في عقر دارنا.. ومثل هذا الغزو يستتبع ذلاً لايمكن تبديلـه الى عـزّ الاّ إذا ارتفعت أمتنـا أو قادتهـا الفكريـون على الاقل الى مستوى التحديات الراهنة.

وإننا من منطلق «التقريب» ندعو الى هذا الارتفاع، ونعتقد أنه يجب ان يبدأ بحـوار علمي عملي جـادلتجاوز الحساسيات التاريخية الموروثة ثم يتواصل باذن اللـه تعـالى بهدف تحصين الامة من كل غزو خارجي، وبهدف استعادةدور الريادة على الساحة العالمية، وما ذلك على الله بعزيز.